تفسير سورةُ المؤمنون
من آية (23) إلى آية (43)
اللقاء الثالث

المعنى الإجمالي من آية (12) إلى آية (22):

يخبِرُ اللهُ تعالى أنه خلَق آدَمَ مِن طينٍ مأخوذٍ مِن جَميعِ الأرضِ، ثمَّ جعل سبحانه وتعالى ابنَ آدم نطفةً تَستَقِرُّ محفوظةً في رحمِ المرأةِ، ثمَّ صَيَّر اللهُ تعالى النُّطفةَ قِطعةَ دَمٍ، فجعَلها قِطعةَ لَحمٍ صغيرةٍ، فجعَلها عِظامًا مختلفةً، وشَكَّلها ذاتَ رأسٍ ويدينِ ورِجلَينِ، ثم ألبس تلك العِظامَ لَحمًا، ثمَّ أنشَأه خَلقًا آخَرَ بأن نفخَ فيه الرُّوحَ، فتبارَكَ اللهُ الذي أحسَنَ وأتقنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَه!

ثمَّ يُذكِّرُ الله البشرَ أنَّهم بعدَ ذلك سيموتونَ، ثمَّ بعدَ موتِهم سيُبْعثونَ يومَ القيامةِ مِن قُبورِهم؛ للحِسابِ والجَزاءِ.

يقول الله تعالى: ولقد خلَقْنا فوقَكم -أيُّها الناسُ- سَبعَ سَمواتٍ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، وما كنَّا عن الخَلقِ غافلينَ.

ويخبرُ أنه أنزَل مِنَ السَّماءِ ماءً بقَدْرِ حاجةِ الخلائِقِ، وجَعَل هذا الماءَ ساكنًا في الأرضِ محفوظًا فيها، وهو سبحانَه على إذهابِه لَقادِرٌ، فأنشَأ بهذا الماءِ للناسِ بَساتينَ النَّخيلِ والأعنابِ، لهم فيها فَواكِهُ كثيرةٌ، ولهم منها غِذاءٌ يأكُلونَه، وأنشَأ لهم به أيضًا الشجرةَ العظيمةَ المنافعِ شَجرةَ الزَّيتونِ التي تَخرُجُ مِن جَبَلِ طُورِ «سَيناءَ» يُعصَرُ مِن ثمرِها الذي تُخرِجُه الزَّيتُ، فيُدَّهَنُ ويُؤتَدَمُ به.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا آخَرَ مِن نِعَمِه، فيُخبرُ أنَّ لهم في الأنعامِ ما يعتَبِرونَ به؛ فهو يَسقيهم منها ممَّا في بُطونِها مِنَ اللَّبَنِ، ولهم فيها مَنافِعُ أُخرى كَثيرةٌ، ومِن لحومِها وشحومِها يأكُلونَ، وعلى الإبِلِ برًّا وعلى السُّفُنِ بحرًا يُحمَلونَ. التفسير المحرر

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿23﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا بَيَّن اللهُ سُبحانَه وتَعالَى دَلائلَ التَّوحيدِ؛ أرْدَفَها بالقَصصِ؛ كما هو العادةُ في سائرِ القُرآنِ.

قال ابن حيان: وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أولًا بَدْءَ الإنسانِ وتَطوُّرَه في تِلكَ الأطوارِ، وما امتَنَّ به عليه ممَّا جَعَله تعالى سَببًا لحياتِهم، وإدراكِ مَقاصدِهم؛ ذَكَر أمثالًا لكُفَّارِ قُرَيشٍ مِن الأممِ السَّابقةِ المنكِرةِ

لإرسالِ اللهِ رُسلًا، المكذِّبةِ بما جاءَتْهم به الأنبياءُ عن اللهِ؛ فابتَدَأَ بقِصَّةِ نُوحٍ؛ لأنَّه أبو البَشرِ الثاني، كما ذَكَر أولًا آدَمَ وخلقَه مِنْ طِينٍ. ولِقَصَّتِه أيضًا مُناسَبةٌ بما قَبْلَها؛ إذ قَبْلَها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ [المؤمنون: 22]؛ فذَكر قِصَّةَ مَن صَنَعَ الفُلكَ أولًا، وأنَّه كان سَبَبَ نَجاةِ مَن آمَنَ.

وقال ابن عاشور: وأيضًا لَمَّا كان الاستدلالُ والامتنانُ -اللَّذانِ تَقدَّما- مُوجَّهَينِ إلى المشركينَ الذين كَفروا بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واعتلُّوا لذلك بأنَّهم لا يُؤمِنون برِسالةِ بَشَرٍ مِثلِهم، وسألوا إنزالَ ملائكةٍ، ووَسَموا الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالجُنونِ، فلمَّا شابَهوا بذلك قومَ نُوحٍ ومَن جاءَ بعدَهم، ناسَبَ أنْ يُضرَبَ لهم بقومِ نُوحٍ مَثَلٌ؛ تحذيرًا ممَّا أصابَ قومَ نُوحٍ مِن العَذابِ.

إنَّ الخلق بحاجة الرسل ليبلّغوهم ما يُحبّه الله ويرضاه، وما يغضب منه ويأباه، وكثير من العصاة والمنحرفين ضلّوا في متاهات الشقاوة، هذا مع وجود الأنبياء عليهم السلام، فكيف تكون الحال لو لم يُرسل الله تعالى رسلاً مبشرين ومنذرين.

فالرسل بُعثوا يُهذّبون العباد، ويُخرجونهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ويُحرّرونهم من رقّ عبودية المخلوق، إلى حرية عبادة رب الأرباب الذي أوجدهم من العدم، وسيفنيهم بعد الوجود، ويبعثهم بعد الفناء، ليكونوا إما أشقياء، وإما سعداء.

ولو تُرك الناس هملاً دون إنذار وتخويف، لعاشوا عيشة ضنكاً، في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، وعادات منحرفة، وأخلاق فاسدة، وأصبحت الحياة مجتمعُ غاب، القويّ فيهم يأكل الضعيف، والشريف فيهم يذلّ الوضيع، وهكذا... فاقتضت حكمته جلّ وعلا ألا يخلق عباده سُدى، ولا يتركهم هملاً، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾ [القيامة: 36].

ومن رحمته جلّ وعلا بهم، أن منّ عليهم إذ بعث فيهم رسلاً مبشرين ومنذرين يتلون عليهم آيات ربهم، ويُعلّمونهم ما يصلحهم، ويُرشدونهم إلى مصدر سعادتهم في الدنيا والآخرة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) أي: ولقدْ أَرسَلْنا نُوحًا إلى قَومِه، فقال لهم نُوحٌ: يا قَومِ، اعبُدُوا اللهَ وَحْدَه، وذِلُّوا بطاعتِه مُخلِصينَ له، ما لكم مِن مَعبودٍ غيرُه يَستَحِقُّ أنْ تَعبُدوه. موسوعة التفسير

قال ابنُ الجوزي: (قال المفسِّرون: هذا تَعزيةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذِكرِ هذا الرَّسولِ الصابِرِ؛ ليتأسَّى به في صبرِه، وليَعلَمَ أنَّ الرُّسُلَ قبْلَه قد كُذِّبوا).

(أَفَلَا تَتَّقُونَ) أي: أفلا تخشونَ اللهَ، وتخافونَ عقوبتَه أن تحِلَّ بكم بسببِ عبادتِكم غيرَه، وإشراكِكم به. موسوعة التفسير

قال البقاعي: (أَفَلَا تَتَّقُونَ أي: تخافون ما ينبغي الخوفُ منه، فتجعلوا لكم وقايةً مِن عذابِه، فتعمَلوا بما تقتضيه التقوى مِن إفرادِه بالعبادةِ؛ خوفًا من ضَرِّكم، ورجاءً لنفعِكم).

نوح أرسله الله بعد آدم -عليهما السلام-، ظل قوم نوح يعبدون الأصنام دهرًا طويلاً واتخذوها آلهة يرجون منها الخير، ويستدفعون بها الشر، ويردون كل شيء في الحياة إليها، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: أن هذه الأصنام أسماء رجال صالحين من قوم نوح، أي: من القوم الذين بعث فيهم نوح، وأنهم على الإسلام قبل أن يبعث إليهم نوح عليه السلام، فلما هلكوا وصورهم قومهم لتذكرهم والاقتداء بهم، فلم يعبدوا حينئذ، فلما هلك أولئك ونسخ العلم من صدور الرجال عبدوهم، وفشا الشرك فيهم، فبعث الله لهم نوحًا عليه السلام لإنكار ذلك ودعوتهم إلى عبادة الله وحده.

(وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) [نوح:23]، دعوها بمختلف الأسماء ومنها ود وسواع ويغوث ونسرا على حسب ما يملي عليهم الجهل ويزين لهم الهوى، فأرسل الله إليهم رسولاً منهم، وهو نوح -عليه السلام-، وكان رجلاً فصيح اللسان واضح البيان، رزقه الله الصبر والأناة، فأنذرهم بالعقاب فعموا وصموا، ورغبهم في الثواب فوضعوا أصابعهم في آذانهم واستكبروا، ولكنه ناضلهم وجادلهم، ثم صابرهم وطاولهم، فمد لهم حبل أناته، راجيًا من الله أن يستجيبوا لدعوته، ويؤمنوا بالله -عز وجل-، ولم يدع اليأس يسلك سبيلاً إلى قلبه، وجاهد في إبلاغ رسالته حق الجهاد، دعاهم ليلاً ونهارًا، وإعلانًا وإسرارًا، ومع كل ما بذل من جهود لم يؤمن به إلا القلة من قومه، استجابوا لدعوته وصدقوا رسالته، أما الذين طبع الله على قلوبهم فلم يؤمنوا به ولا برسالته، وكانوا من سادة القوم فتمالؤوا عليه، واستهزؤوا به، وسفهوا دعوته ورأيه.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿24﴾

(فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ) أي: فقال الكفارُ مِن قومِ نوحٍ مِن الأشرافِ والسَّادةِ: ما نُوحٌ إلَّا إنسانٌ مِثلُكم، وليس رَسولًا كما يَزعُمُ، وإنَّما يُريدُ أنْ يكونَ أفضَلَ منكم، فادَّعى النُّبُوَّةَ لتَتَّبِعوه. موسوعة التفسير

قال أبو السعود: وَصَفُوه بذلك؛ إغضابًا للمُخاطبينَ له -عليه السَّلامُ-، وإغراءً لهم على مُعاداتِه عليه السَّلامُ.

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً) أي: ولو شاءَ اللهُ ألَّا نَعبُدَ شَيئًا سِواه، لَأَنزلَ علينا ملائِكةً رُسُلًا يُبَلِّغونَنا ألَّا نَعبُدَ غَيرَه. موسوعة التفسير

(مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ) أي: ما سَمِعْنا في أسلافِنا مِنَ القُرونِ الماضيةِ بمِثلِ هذا الَّذي يَدْعونا إليه نُوحٌ، مِن أنَّه لا مَعبودَ لنا غيرُ اللهِ. موسوعة التفسير

قال الماوردي: (قولُه عزَّ وجلَّ: مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ فيه وجهانِ: أحدُهما: ما سمِعنا بمثلِ دعوتِه. والثاني: ما سمِعنا بمثلِه بشرًا أتَى برسالةٍ مِن ربِّه).

كما قال تعالى: (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ) [القصص: 36].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ ﴿25﴾

(إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ) أي: ما نُوحٌ إلَّا رجُلٌ فيه شَيءٌ مِنَ الجُنونِ؛ دفَعه لادِّعاءِ الرسالةِ، فلا يَدري ما يقولُ، وهو ليس رَسولًا مِن عِندِ اللهِ كما يَزعُمُ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ) [القمر: 9].

(فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ) أي: فانتَظِروا بنُوحٍ وَقْتًا ما حتَّى يُفيقَ مِنْ جُنونِه فيتركَ دعواه هذه، أو يَموتَ؛ فتَستَريحوا منه. موسوعة التفسير

﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ ﴿26﴾

(قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ) أي: قال نُوحٌ: رَبِّ، انصُرْني على قَومي، فأهلِكْهم بسَبَبِ تَكذيبِهم برِسالَتي. موسوعة التفسير

قومه لجؤوا إلى الجدل وأمضوا في المراوغة وقالوا: ما نرى لك -يا نوح- ولصحبك علينا من فضل، لا في العقل ولا في رعاية المصالح ولا معرفة المعاد، بل نظنكم كاذبين، فأجابهم نوح مع حلمه بهم: أرأيتم لو أني كنت على بينة من ربي وحجة شاهدة بصدق دعواي، وآتاني منه رحمة وفضلاً، فعمي عليكم القصد، واشتبه عليكم الأمر، فهل أستطيع لكم إلزامًا أو أملك لحملكم على الإيمان سلطانًا؟! قالوا: يا نوح إن أردت لنا هداية وتوفيقًا وأردت لنا نصرًا وإعزازًا فاعمد إلى هؤلاء الذين آمنوا -وقد كانوا يحتقرونهم- وأبعدهم عنك، فإننا لا نستطيع أن نسير على أسلوبهم، فكيف يستوي الأشراف والسوقة -حسب زعمهم-، فقال لهم: إنها دعوة عامة شاملة لكم جميعًا، يستوي فيها الجميع، الأغنياء والفقراء، وهبوني أجبتكم إلى طلبكم وطردتهم، فمن الذي أعتمد عليه في نشر الدعوة وتأييد الرسالة؟! وكيف أطرد قومًا نصروني، ولقيت منكم الصدود والخذلان، ووصلت كلماتي إلى قرارة نفوسهم، وما صادفت منكم إلا الجحود والنكران، وكيف حالي معهم بين يدي الله إذا خاصموني وحاجوني وشكوا إلى الله أني قابلت إحسانهم بالجحود؟! ألا إنكم قوم تجهلون.

ولما اشتد بينهم وبينه الجدل سئموا منه، وضاقت صدورهم به وقالوا: (يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)، فأنكر عليهم نوح، وقال: إنكم تسرفون في الجهل، ومن أنا حتى آتيكم بالعذاب أو أمنعه عنكم؟! إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ، فأبلغكم ما أمرت به، وأبشركم بالثواب مرة وأنذركم بالعذاب أخرى، إلا أن مرد كل شيء إلى الله، إن شاء هداكم وإن شاء أمهلكم وإن شاء عاقبكم.

وقد رزقه الله الصبر على أذاهم، كيف لا وهو من أولي العزم من الرسل، مكث في قومه يدعوهم إلى عبادة الله ألف سنة إلا خمسين عامًا، صابرًا على استهزائهم، أملاً من الله أن يؤمنوا، ولكنهم ما ازدادوا إلا نفورًا من دعوته، ففزع إلى الله شاكيًا ملتجئًا مستعينًا مستهديًا في هؤلاء الذين عجزت حيلته فيهم، ويكاد الأمل ينقطع في إيمانهم، فأوحى الله إليه: (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)، وعندما نفد صبره ويئس منهم دعا عليهم فقال: (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) [نوح: 26-27].

كما قال تعالى: (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) [الصافات: 75].

وقال سُبحانَه: (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ) [القمر: 10].

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ ﴿27﴾

(فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا) أي: فقُلْنا لنُوحٍ: اصنَعِ السَّفينةَ بمرأًى مِنَّا، وفي حِفظِنا، وبتَعليمِنا إيَّاك كيفيَّةَ صُنْعِها. موسوعة التفسير

قال اللهُ تعالى: فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا لَمَّا كان نوحٌ عليه السَّلامُ يَخافُ مِن أذاهُم له في عَمَلِه بالإفسادِ وغيرِه، قال: بِأَعْيُنِنَا، أي: إنَّه لا يَغيبُ عنَّا شَيءٌ مِن أمْرِك ولا مِن أمْرِهم، وأنتَ تَعرِفُ قُدرتَنا عليهم؛ فثِقْ بحِفْظِنا، ولا تَخَفْ شيئًا مِن أمْرِهم. ولَمَّا كان لا يَعلَمُ تلك الصَّنعةَ، قال: وَوَحْيِنَا.

(فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) أي: فإذا أتَى وَقتُ إهلاكِنا لِقَومِك -يا نوحُ- بالطُّوفانِ، ونَبَع الماءُ بشِدَّةٍ مِنَ الموضِعِ الَّذي يُخبَزُ فيه؛ فأَدْخِلْ في السَّفينةِ مِن كلِّ صِنفٍ مِن أصنافِ المخلوقاتِ ذَكَرًا وأُنثى. موسوعة التفسير

وقال السعدي: (وَفَارَ التَّنُّورُ أي: فارت الأرضُ، وتفجَّرتْ عيونًا، حتى محلُّ النارِ، الذي لم تَجرِ العادةُ إلَّا ببُعدِه عن الماءِ).

وقال ابن عطية: (الصَّحيحُ من الأقوالِ فيه: أنَّه تنُّورُ الخُبزِ، وأنَّها أمارةٌ كانت بيْنَ الله تعالى وبيْن نوحٍ عليه السَّلامُ).

كما قال تعالى: حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ [هود: 40].

(وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ) أي: وأَدخِلْ -يا نُوحُ- في السَّفينةِ أهْلَ بَيتِك، إلَّا مَن سبَقَ حُكمُ اللهِ عليه بإهلاكِه؛ لكُفرِه. موسوعة التفسير

وقال سُبحانَه: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ [التحريم: 10].

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) أي: ولا تَسألْني -يا نُوحُ- أنْ أُنَجِّيَ الكافرينَ؛ فإنِّي قدْ حَكَمْتُ بإغراقِهم جَميعًا. موسوعة التفسير

⇦قولُه: إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ تَعليلٌ للنَّهيِ، أو لِمَا يُنبِئُ عنه مِن عدَمِ قَبولِ الدُّعاءِ، أي: إنَّهم مَقْضِيٌّ عليهم بالإغراقِ لا مَحالةَ؛ لِظُلْمِهم بالإشراكِ وسائرِ المعاصي، ومَن هذا شأنُه لا يُشْفَعُ له، ولا يُشَفَّعُ فيه، كيف لا وقد أُمِرَ بالحمْدِ على النَّجاةِ منهم بهَلاكِهم بقولِه تعالى: فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

اتخذ مكانًا قاصيًا بعيدًا عن القوم، وأخذ يصنع السفينة وقومه يمرون به ساخرين مستهزئين، وقال بعضهم: إنك -يا نوح- كنت تزعم قبل اليوم أنك نبي ورسول، فكيف أصبحت اليوم نجارًا، أزهدت في النبوة، أم رغبت في التجارة؟! وقال آخرون: ما بال سفينتك تصنعها بعيدة من البحار والأنهار؟! أأعددت الثيران لتجرها، أم تظن أن الهواء يحملها؟! ولكنه أعرض عن استهزائهم فقال: (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ).

فلما اكتمل بناء السفينة أوحى الله إليه إذا جاء أمرنا وظهرت آياتنا فاعمد إلى سفينتك، وخذ من آمن من قومك وأهلك، واحمل معك من كل زوجين اثنين حتى يبلغ الله أمره.

وتفتحت أبواب السماء بالماء، وتفجرت عيون الأرض، وبلغ السيل الزبى، ثم جاوز القيعان والربا، فهرع نوح إلى السفينة، وحمل ما أمره الله بحمله من الإنسان والحيوان والنبات، وسارت باسم الله مجراها ومرساها، سارت والأمواج تحيط بها وتطرح بين طياتها للكافرين قبورًا، ويغلبهم الموت، وأشرف نوح فوق ظهر السفينة فرأى ابنه كنعان، وكان الشقاء رفيقه فاعتزل أباه، ورغب عن دينه، رأى ابنه يصارع الأمواج، فدعاه إلى الركوب معهم في السفينة رحمة به وإشفاقًا عليه وحبًّا له، (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ)،ولكن الابن لم يستجب فقال: (قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ)، فقال نوح -وقد غلبه الهم والوجد-: يا بني: إنه (لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ)، ثم فصل بينهما الموج، فكان من المغرقين، (وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) ثم دعا الله وقال: (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي)، وقد وعدت ووعدك حق أن تنجيني ومن آمن من أهلي، وأنت أحكم الحاكمين، فأوحى الله إليه: (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ).

وحينئذ أدرك نوح أن العطف أذهله عن الحق، وكان أولى به أن يشكر الله على أن نجاه من الغرق مع من آمن به، وأهلك الكافرين، عند ذلك التجأ نوح إلى الله مستغفرًا من ذنبه ومستعيذًا بالله من سخطه فقال: (رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ

الْخَاسِرِينَ)، وبعد أن أهلك الله أهل الكفر والعصيان من قومه بالطوفان والغرق كفّت السماء عن إنزال الماء، وابتلعت الأرض الماء، ورست السفينة على جبل الجودي، وقيل: بُعدًا للقوم الظالمين، وقيل لنوح: اهبط بسلام إلى الأرض أنت ومن آمن معك من قومك، تحفكم البركة، وتكلؤكم عناية الله.

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿28﴾

(فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أي: فإذا استقرَرْتَ -يا نوحُ- أنتَ والمؤمنونَ الَّذين معك على السَّفينةِ، وعَلَوتُم فَوقَها راكِبينَ، فقُلِ: الحَمدُ للهِ الَّذي خلَّصَنا مِنَ القَومِ المشرِكينَ. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: (والظُّلْمُ: يجوزُ أنْ يُرادَ به الشِّركُ كما قالَ تعالَى: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [لقمان: 13]، ويجوزُ أنْ يُرادَ به الاعتداءُ على الحقِّ؛ لأنَّ الكافرينَ كانوا يُؤْذونَ نوحًا والمؤمنينَ بشتَّى الأذَى باطلًا وعدوانًا، وإنَّما كان ذلك إنجاءً؛ لأنَّهم قدِ استقلُّوا بجماعَتِهم، فسَلِموا مِنَ الاختلاطِ بأعدائِهم).

كما قال تعالى: (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الأنعام: 45].

هذا تَعليمٌ منه تعالى لِنُوحٍ عليه السَّلامُ ولمن معَه أنْ يَقولوا هذا؛ شُكْرًا له تعالى، وحمْدًا على نَجاتِهم مِنَ القومِ الظَّالمينَ، وهكذا الواجِبُ على كلِّ مَن أنجاه اللهُ مِن الظُّلمةِ أن يحمَدَ رَبَّه على ذلك، ويسألَه النَّجاةَ إذا ابتُلِيَ بهم، كما عَلَّم نوحًا أن يقولَ ما ذَكَر ويحمَدَه على النَّجاةِ منهم. الدرر السنية

﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ﴿29﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا أشار اللهُ تعالى لنُوحٍ -عليه السَّلامُ- بقولِه: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا إلى السَّلامةِ بالحمْلِ، أَتْبَعه الإشارةَ إلى الوَعدِ بإسكانِ الأرضِ، فقال

(وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا) أي: وقُلْ -يا نُوحُ: رَبِّ أنْزِلْني إنْزالًا مُبارَكًا. موسوعة التفسير

قال تعالى: قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ [هود: 48].

- مَنْزِلًا: اسمُ مَكانٍ، بمعنى مَوضِعِ النُّزولِ.
- مُنْزَلًا: مَوضِعًا مُبارَكًا يَنزِلونَ فيه.

(وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) أي: وأنتِ -يا رَبَّنا- خَيرُ مَن تُنزِلُ عِبادَك. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: أَلْهَمه اللَّهُ بالوحيِ أنْ يحمَدَ رَبَّه على ما سَهَّل له مِن سبيلِ النَّجاةِ، وأنْ يسألَه نزولًا في منزِلٍ مُبارَكٍ عقبَ ذلك الترحُّلِ، والدُّعاءُ بذلك يتضَمَّنُ سؤالَ سلامةٍ مِن غَرَقِ السَّفينةِ، وفي ذلك التَّعليمِ إشارةٌ إلى أنَّه سيُتقبَّلُ ذلك منه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ ﴿30﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها: قال ابن عاشور: لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى هذه القِصَّةَ العظيمةَ، أعقَبَها بالتَّنبيهِ إلى مَوضعِ العِبرةِ منها للمُسلمينَ؛ فأتَى بهذا الاستئنافِ لذلك

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ) أي: إنَّ في إهْلاكِنا قَومَ نُوحٍ الكافرينَ وإنجائِنا المؤمنينَ: لَدَلالاتٍ واضحاتٍ على وَحدانيَّةِ اللهِ، وعِلْمِه وحِكمَتِه، وصِدْقِ أنبيائِه، وقُدْرتِه على نَصْرِ المؤمنين، وإهلاكِ أعدائِه. موسوعة التفسير

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ) أي: وقدْ كُنَّا مُختَبِرينَ بإرسالِ الرُّسُلِ، والتَّذكيرِ بآياتِنا قَبلَ نُزولِ عُقوبتِنا؛ لِنَنظُرَ كيف يَعمَلونَ. موسوعة التفسير

ذهَب البقاعيُّ، فقال: (لَمُبْتَلِينَ أي: فاعلين فِعلَ المختبِرِ لعبادِنا بإرسال الرُّسلِ؛ لِيَظهرَ في عالَمِ الشهادةِ الصالحُ منهم مِن غيرِه، ثمَّ نبتلي الصالحينَ منهم بما يَزيدُ حَسناتِهم، ويَنقُصُ سيِّئاتِهم، ويُعلي دَرجاتِهم، ثم نجعلُ لهم العاقبةَ؛ فنُبلي بهم الظالمينَ بما يُوجبُ دَمارَهم، ويُخربُ دِيارَهم، ويمحو آثارَهم، هذه عادتُنا المستمرَّةُ إلى أنْ نرِثَ الأرضَ ومَن عليها، فيكونَ البلاءُ المبينُ).

نزلت في نوح -عليه السلام- مع قومه آيات كثيرة في كتاب الله القرآن الكريم، وسميت سورة كاملة باسمه هي سورة نوح، وهي مكية وآياتها ثمانٍ وعشرون آية، كان من أعظم مقاصدها: ضرب المثل للمشركين في عهد نبينا محمد -ﷺ- بقوم نوح، وهم أول المشركين الذين سلط الله عليهم أعظم عقاب وهو الطوفان والغرق بالماء من كل جهة، فقد دعا قومه إلى توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام وإنذار قومه بعذاب أليم، ومع ذلك كذبوه، فرسولنا محمد -عليه الصلاة والسلام- أنزلت عليه هذه السورة لينذر قومه أن يحل بهم مثل ما حل بقوم نوح الذي دعا قومه بكل الطرق وأمرهم بالاستغفار، فإن الله غفار للذنوب، وإن من يتوب ويتوب الله عليهم يرزقهم المطر المتتابع، ويمدهم بالمال والذرية والخيرات المختلفة من المزارع وغيرها، واستنكر عليهم عدم تعظيمهم لله -عز وجل-، مع أنه هو الذي خلقهم من تراب ثم من نطفة من عقلة ثم من مضغة ثم أجنة وهكذا، حتى أكمل الله -عز وجل- خلقهم بقدرته العظيمة الباهرة، وذكرهم بخلق الله -عز وجل- للسماوات والأرض، وجعل فيها القمر والشمس، وبسط لهم الأرض، وجعل لهم فيها سبلاً وطرقًا، ومع ذلك عصوا الله ومكروا وتكبروا وأبوا أن يتركوا عبادة الأصنام، فأهلكهم الله مستجيبًا لدعوة نوح -عليه السلام- الذي دعا بأن يهلكهم، ودعا الله أن يغفر له ولوالديه وللمؤمنين وللمؤمنات، فقال في آخر آية من سورة نوح: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا) أي هلاكًا وخسارًا.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ ﴿31﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا بيَّنَ اللهُ سُبحانَه وتعالَى تَكذيبَ قَومِ نُوحٍ عليه السَّلامُ وما عَذَّبَهم به، وكان القِياسُ مُوجبًا أنَّ مَن يأْتي بَعْدَهم يَخْشى مِثْلَ مَصرَعِهم، فيَسلُكُ غيرَ سَبيلِهم، ويقولُ

غيرَ قِيلِهم؛ بيَّنَ أنَّه لم تَنفَعْهم العِبرةُ، فارْتَكبوا مِثْلَ أحوالِهم، وزادوا على أقْوالِهم وأفعالِهم؛ لإرادةِ ذلك مِن الفاعِلِ المختارِ، الواحِدِ القهَّارِ.

(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) أي: ثُمَّ أوجَدْنا مِن بَعدِ قَومِ نُوحٍ قَومًا آخَرينَ. موسوعة التفسير

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿32﴾

(أَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) أي: فأرسَلْنا في أولئك القَومِ رَسولًا منهم، فقال لهم: اعْبُدوا اللهَ وَحْدَه وأطِيعُوه؛ ما لكمْ مِن مَعبودٍ يَستَحِقُّ العِبادةَ غَيرُه. موسوعة التفسير

قال السِّعدي: (فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ مِن جِنسِهم، يَعرِفونَ نَسَبَه وحَسَبَه وصِدْقَه؛ لِيكونَ ذلك أسرعَ لانقيادِهم إذا كان منهم، وأبعَدَ عن اشْمِئزازِهم).

(أَفَلَا تَتَّقُونَ) أي: أفَلا تخافونَ عقابَ الله على شركِكم؛ فتَجْتَنِبوا عبادةَ هذه الأصنامِ. موسوعة التفسير

قال البقاعي: (أَفَلَا تَتَّقُونَ أي: تجعلونَ لكم وقايةً مما ينبغي الخوفُ منه، فتجعلوا وقايةً تحولُ بينَكم وبينَ سخطِ الله).

قال ابن عاشور: تَعقيبُ قِصَّةِ نُوحٍ وقَومِه بقِصَّةِ رسولٍ آخَرَ، وما بَعْدَها مِن القَصصِ يُرادُ منه: أنَّ ما أصاب قَومَ نُوحٍ على تَكذيبِهم له لم يكُنْ صُدْفةً، ولكنَّه سُنَّةُ اللهِ في المكذِّبينَ لرُسُلِه؛ ولذلك لم يُعيِّنِ القَرْنَ ولا القُرونَ بأسمائِهم.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ ﴿33﴾

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أي: وقال الرُّؤساءُ والأشرافُ والسادةُ مِن قَومِ هذا الرسولِ، الَّذين كَفَروا باللهِ، وكذَّبوا بالبَعثِ والحِسابِ، ونعَّمْناهم ووَسَّعْنا عليهم الرِّزقَ في الحَياةِ الدُّنيا حتَّى بَطِروا وطَغَوا. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: في هَذينِ الوَصفينِ إشارةٌ إلى أنَّهما الباعِثُ على تَكذيبِهم رَسولَهم؛ لأنَّ تَكذيبَهم بلِقاءِ الآخرةِ يَنْفِي عنهم تَوقُّعَ المؤاخَذةِ بعْدَ الموتِ، وثَروتُهم ونِعْمتُهم تُغْرِيهم بالكِبْرِ والصَّلَفِ؛ إذ أَلِفُوا أنْ يَكونوا سادةً لا تَبَعًا.

(مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) أي: ما هذا الرَّسولُ إلَّا إنسانٌ مِثلُكم، يأكُلُ مِمَّا تأكُلونَ مِنَ الطَّعامِ، ويَشرَبُ مِمَّا تَشرَبونَ مِنَ الشَّرابِ، وليس رسولًا كما يَزعُمُ. موسوعة التفسير

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ ﴿34﴾

(وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ) أي: ولَئِنْ أطعْتُم إنسانًا مِثلَكم، فصَدَّقتُم أنَّه رَسولٌ واتَّبعتُموه، إنَّكم إذَن لَمَغْبونونَ. موسوعة التفسير

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ ﴿35﴾

(أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ) أي: أيَعِدُكم أنَّكم إذا مِتُّم وصِرتُم تُرابًا وعِظامًا في قُبورِكم أنَّكم ستُخرَجون منها أحياءً، كما كُنتُم قَبلَ مَماتِكم. موسوعة التفسير

قال ابن حيان: اسْتَفْهَموا استفهامَ استبعادٍ وتَوقيفٍ واستهزاءٍ. قال ابن عاشور: أو استفهامَ تَعجُّبٍ، وهو انتقالٌ مِن تَكذيبِه في دَعْوى الرِّسالةِ إلى تَكذيبِه في المُرْسَلِ به.

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿36﴾

(هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ) أي: بَعيدٌ بَعيدٌ جِدًّا ما يَعِدُكم به مِنَ البَعثِ بَعدَ الموتِ؛ فلا يكونُ ذلك أبدًا. موسوعة التفسير

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿37﴾

(إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا) أي: ليس هناك حَياةٌ أُخرَى سِوى حياتِنا الدُّنيا، يَموتُ فيها الأحياءُ مِنَّا فلا يَحيَونَ ثانيةً، ويُولَدُ آخَرونَ فيَحيَونَ فيها. موسوعة التفسير

(وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) أي: وما نحن بمَبعوثينَ أحياءً بَعْدَ الموتِ. موسوعة التفسير

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿38﴾

(إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) أي: ما هذا الَّذي يَزعُمُ أنَّه رَسولٌ سِوى رَجُلٍ يَختَلِقُ على اللهِ كَذِبًا بأنَّه أرسَلَه بالتَّوحيدِ، وأنَّه يَبعَثُ عِبادَه أحياءً بَعْدَ الموتِ. موسوعة التفسير

(وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ) أي: وما نحنُ له بمُصَدِّقينَ فيما يقولُه مِن تَوحيدِ اللهِ والبَعثِ بَعدَ الموتِ. موسوعة التفسير

﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ ﴿39﴾

(قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ) أي: قال الرَّسولُ: ربِّ انصُرْني على قَومي، فأَهلِكْهم بسَبَبِ تَكذيبِهم برِسالتي. موسوعة التفسير

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ ﴿40﴾

(قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ) أي: قال اللهُ للرَّسولِ: سنُعَذِّبُهم قَريبًا، فيُصبِحونَ نادِمينَ على كُفرِهم وتَكذيبِهم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ [الصافات: 177].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿41﴾

(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ) أي: فانتقَمْنا منهم بصَيحةٍ أخذَتْهم، وهم يَستَحِقُّونَ هذا العِقابَ؛ لِكُفرِهم باللهِ وتَكذيبِهم رَسولَه، فلم يَظلِمْهمُ اللهُ، ولكِنْ ظَلَموا أنفُسَهم. موسوعة التفسير

وقال البقاعي: (بِالْحَقِّ أي: بالأمرِ الثَّابِتِ مِنَ العذابِ الَّذي أُوجِبَ لهم، الَّذي لا تُمكِنُ مُدافَعتُه لهم ولا لأحدٍ غَيرِ اللهِ، ولا يكونُ كذلك إلَّا وهو عَدْلٌ).

(فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً) أي: فجعَلْنا الكافرينَ هَلْكى هامِدينَ، حتَّى صاروا كغُثاءِ السَّيلِ الَّذي لا مَنْفعةَ فيه. موسوعة التفسير

(فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أي: فبُعدًا مِن رَحمةِ اللهِ لِلقَومِ الكافرينَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ برَبِّهم، ومَعصيةِ رَسولِه. موسوعة التفسير

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ ﴿42﴾

(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ) أي: ثُمَّ أوجَدْنا مِن بَعدِ أولئك القَومِ الظَّالِمينَ أقوامًا آخَرينَ. موسوعة التفسير

قال القُرطبي: (وفي الكلامِ حَذْفٌ: فكَذَّبوا أنبياءَهم فأهلَكْناهم).

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ ﴿43﴾

(مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) أي: ما تَسبِقُ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ الكافِرةِ الوقتَ الَّذي قدَّرَه اللهُ لإهْلاكِها، وما تتأخَّرُ عن ذلك الوَقتِ المكتوبِ في اللَّوحِ المحفوظِ. موسوعة التفسير

قال ابنُ جَريرٍ: (وهذا وعيدٌ مِن اللهِ لِمُشركي قَومِ نَبيِّنا محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإعلامٌ منه لهم أنَّ تأخيرَه في آجالِهم مع كُفرِهم به وتَكذيبِهم رَسولَه؛ لِيَبلُغوا الأجَلَ الَّذي أُجِّلَ لهم، فيُحِلَّ بهم نِقمَتَه، كسُنَّتِه فيمَن قَبْلَهم مِنَ الأُمَمِ السَّالِفةِ).

كما قال تعالى: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ [الأعراف: 34].

وهنا نريد التنبيه على خطورة نسيان الموت، فيعيش من حيث لا يدري عيش الكفار والفجار، فليس هناك شيء يردعه، ولا يمنعه، ويفقد توحيده ويقع في الشرك وهو غافل غارق في الحياة الدنيا وكأنه خالد مخلد، وهذا الذي حذرنا منه رب العالمين، وقص علينا القصص ووصف لنا حال الذين كذبوا وكفروا وكيف أن انكارهم للبعث بعد الموت كان سبب هلاكهم، وهذا حال من يغفل عن الموت نجده في حاله وأحواله كأنه لن يبعث ولن يسأل....

فَسَاعَةُ الْمَوْتِ، سَاعَةٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ - كَائِنًا مَنْ كَانَ - أَنْ يُؤَخِّرَهَا عَنْ نَفْسِهِ، أَوْ غَيْرِهِ، وَلَوْ لِسَاعَةٍ، حَتَّى يَتَدَارَكَ مَا فَاتَهُ، وَيُصَحِّحَ مِنْ أَوْضَاعِهِ، قَالَ اللهُ: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: 50]؛ فَهِيَ تَأْخُذُهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ فِي جِدَالِهِمْ وَخِصَامِهِمْ فِي مُعْتَرَكِ الْحَيَاةِ، لَا يَتَوَقَّعُونَهَا، وَلَا يَحْسِبُونَ لَهَا حِسَابًا، فَإِذَا هُمْ مُنْتَهُونَ، كُلٌّ عَلَى حَالِهِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا، لَا يَمْلِكُ أَنْ يُوصِيَ لِمَنْ بَعْدَهُ، وَلَا أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، فَيُوصِيهِمْ بِمَا فِيهِ مَصَالِحِهِ وَإِنْقَاذِ نَفْسِهِ.

وَهَذَا إِنْذَارٌ لِأَهْلِ الْغَفْلَةِ الَّذِينَ غَفَلُوا عَنِ الْمَوْتِ، وَشَغَلَتْهُمُ الدُّنْيَا عَنْ تَذَكُّرِهِ، فَفَاجَأَهُمُ الْمَوْتُ؛ فَلَا يُسْعِفُهُمُ الْوَقْتُ لِيُصْلِحَ مَا يُمْكِنُ إِصْلَاحُهُ؛ فَالْمَوْتُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَبْطِئَهُ مِنَّا أَحَدٌ؛ فَلَا أَحَدَ يَعْلَمُ مَوْعِدَ رَحِيلِهِ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ عَمَلٍ وَلَا تَوْبَةٍ وَلَا اسْتِدْرَاكِ شَيْءٍ وَلَا تَصْحِيحِ وَضْعٍ.

وَلَوِ اسْتَشْعَرَ الْعَاقِلُ وَهُوَ فِي أَوَانِ عَافِيَتِهِ تِلْكَ السَّاعَةَ، لَحَصَلَ كُلُّ مَقْصُودٍ، وَنَالَ كُلَّ مَطْلُوبٍ، فَطَالَمَا نَعْلَمُ أَنْ سَنَنْدَمَ عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِي جَنْبِ اللهِ، وَأَنَّنَا سَنَتَحَسَّرَ عَلَى ذُنُوبِنَا؛ فَلِمَاذَا لَا نُبَادِرُ قَبْلَ الْفَوَاتِ؟ وَنَسْتَعِدُّ لَهُ غَايَةَ الِاسْتِعْدَادَ.

إن تذكر الموت يردع الإنسان عن المعاصي، ويلين القلب القاسي، ويمنع من الركون إلى الدنيا، ويهون المصائب، فليحرص المسلم على أن لا يغفل عن هذه الحقيقة التي هو إليها صائر، فإنه إذا تذكر الموت من حين لآخر يبقى على جانب من محاسبة النفس، ويقصر عنده الأمل، وينشط في العبادة، وفي التزود بزاد التقوى، ولكن المصيبة عندما تنعدم المحاسبة ويعيش الإنسان في لهو وفي غفلة، يعيش يلهث وراء حطام الدنيا، يكدح في هذه الحياة ويكدح، ومجالسه كلها حديث في الدنيا وفي أمور الدنيا، وينسى الموت، ثم يتفاجأ يوما من الأيام وإذا بالموت أمامه، وإذا بملك الموت قد جاء لقبض روحه، فيندم الندم العظيم، هنا تأتي المصيبة، ولذلك ينبغي أن يجعل الإنسان تذكر الموت من حين لآخر أن يجعله منهجا له في الحياة، فإن هذا مما يعينه على التزود بزاد التقوى، وهذا مما يريه الدنيا على حقيقتها، ويقصر الأمل لديه.